



مجلة أبحاث ودراسات التنمية المستدامة في العلوم الإنسانية  
Journal of Sustainable Development Research and Studies in  
the Humanities (JSDRHS),  
Vol. 1, No. 2  
المركز الليبي لأبحاث التنمية المستدامة  
Libyan Center for Sustainable Development Research  
<https://jsdrh.ly/index.php/jsdrh/about/contact>

المجلد 1، العدد 2 (2026)،  
ص 89–102  
تاريخ المقال:  
تاريخ الاستلام: 20 أغسطس 2026  
تاريخ القبول: 27 أغسطس 2026  
تاريخ النشر: 03 سبتمبر 2026

## كتاب الدولة المرابطية بين الولاء والانتماء رسالة بن أبي الخصال إلى جند بلنسية نموذجاً

د. عبد السلام يحيى

جامعة العلوم الإسلامية بليون - موريتانيا

بريد المؤلف المراسل: [absalam12@gmail.com](mailto:absalam12@gmail.com)

### الملخص:

تتناول هذه الدراسة دراسة نموذجاً يعكس مدى تطور ديوان الإنشاء في الدولة المرابطية والتغيرات التي طرأت على العلاقة بين النخبة الأندلسية والحكام المرابطين، من خلال تحليل سياقي ونقدي لرسالة ابن أبي الخصال الموجهة إلى جند بلنسية، وتوضح الدراسة التحول من مرحلة البداوة البسيطة في الرسائل الأولى إلى طور التنظيم والتحضر المعتمد على كُتّاب الأندلس بعد إسقاط ملوك الطوائف، كما ترصد الدراسة كيف أدى التمايز الثقافي والعصبي بين الحضر الأندلسيين والبداة "الملثمين" إلى تصاعد حدة الهجاء والرفض الضمني والعلني للسيادة المرابطية، كما تسلط الدراسة الضوء على الخلفيات التاريخية والظروف السياسية المعقدة (كهزيمة المرابطين أمام ابن ردمير، والتهميش السياسي للكاتب ابن أبي الخصال) التي جعلت من هذه الرسالة نموذجاً فريداً للتقذيع والتوبيخ، متجاوزة كافة الأدبيات والأعراف المرعية في كتابة ديوان السلطان، لتغدو تعبيراً عن "الغيرية الثقافية"، والرفض الأندلسي للهيمنة المرابطية.

**الكلمات المفتاحية:** ديوان الإنشاء، المرابطون، رسالة ابن أبي الخصال، ملوك الطوائف، الأندلس.

### Abstract:

This study examines the development of the Chancery (Diwan al-Insha') during the Almoravid era and analyzes the evolving relationship between the Andalusian elite and Almoravid rulers, centered on a contextual and critical reading of Ibn Abi al-Khisal's famous letter to the troops of Valencia. The paper traces the transition of the Almoravid state from its nomadic tribal origins to a structured bureaucratic administration heavily reliant on Andalusian scribes following the fall of the Taifa kingdoms. It highlights how cultural and ethnic friction between the urbanized Andalusians and the nomadic Almoravid "veiled warriors" (al-Mulathameen) led to a surge of political satire and implicit resistance against Almoravid rule. Furthermore, the study explores the historical and psychological factors—such as the Almoravid military setbacks against Alfonso I of Aragon (Ibn Radmir) and the personal political marginalization of Ibn Abi al-Khisal—that influenced the exceptionally harsh and vitriolic tone of the letter. Transgressing the traditional etiquette of royal correspondence, the text serves as a stark historical manifestation of cultural alterity and the Andalusian intellectual reaction against Almoravid hegemony.

**Keywords:** Diwan al-Insha, Almoravids, Letter of Ibn Abi al-Khisal, Taifa Kingdoms, Al-Andalus.

## مقدمة

لعل أول كاتب للدولة المرابطية هو داعيتهم عبد الله بن ياسين الجزولي (ت 451هـ/1059م)، والذي كان يبعث بيوميته في الصحراء إلى شيخه وجاج بن زلو اللمطي "المرابط" بالسوس الأقصى، أو القاضي الحضرمي الذي حاول أن يسلك في أهل الصحراء مسلك الجزولي، وخاب مسعاه وتوفي في دكول من بلاد الملثمين (حيث لا يروق وجه النهار ولا يحمد صوب القطار) (الشنتريني، 1979: ص364).

لكن البداية الفعلية لديوان الإنشاء المرابطي تبدأ مع تقلد الأندلسي عبد الرحمن بن أسباط (ت 487هـ/1094م) الكتابة للأمير يوسف بن تاشفين قبل دخولهم الأندلس، ووزر له وكان يستشير في كثير من شؤون السياسة والحرب (عنان، 1990: ص440)، وتتالى كتاب الأندلس على البلاط المرابطي بعد إسقاط ملوك الطوائف، حيث التحق به أعيان مثل أبي بكر ابن القصيرة (ت 508هـ/1114-1115م) كاتب بني عباد، وأبناء القبطرنة (أبو بكر وأبو الحسن وأبو محمد) وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون (ت 520هـ/1126م) كتاب بني الأفطس، وغيرهم من أعيان الكتابة والإنشاء في عصر ملوك الطوائف (عنان، 1990: ص440-444)، وانتقلت الدولة المرابطية من عدم الاهتمام بديوان الإنشاء لعهدا بالبداوة إلى طور الترتيب والتنظيم بعد التوسع والتحضر والانفتاح (القلقشندي، 1963: ج1، ص94). وكانت علاقة المرابطين بالأندلسيين في البداية تقتصر على المساعدة العسكرية في رد غارات النصارى على الثغور الشرقية والغربية، وكان لوقعة الزلاقة (479هـ/1086-1087م) أثرها البعيد في تعزيز هذا الدور، والذي استند عليه المرابطون لاحقاً كمسوغ لإسقاط ملوك الطوائف، فتغيرت نظرة النخبة الأندلسية إليهم من صورة الحليف إلى الحاكم الغريب، بكل ما يمثله من مظاهر التمايز والمغايرة، ودبجوا في ذلك الدواوين الكثيرة شعراً ونثراً، سراً وجهراً، في الحسرة على الأندلس ونضارتها، وأسفاً على تملكها من طرف بداءة جلف، برابرة صحراويين، لا عهد لهم بالحضارة والتمدن. وما رسالة ابن أبي الخصال إلى جند بلنسية إلا حلقة في سلسلة طويلة، لكنها بزت الجميع بقوة أسلوبها وقذاعة لفظها، حتى طارت كل مطار، وكاد الأندلسيون أن يستظهروها لما لاقوا في أنفسهم من استحسان، لكن ما هي الجذور العميقة التي وسعت الهوة بين حكام الأندلس المرابطين ومحكومياتها؟ إلى أن وصلنا إلى هذه الدرجة من الكثافة الهجائية – إن صح التعبير – التي وردت في الرسالة الأشهر.

## 1 - جذور التعصب الأندلسي:

قبل مجيء المرابطين بقليل إلى الأندلس، كان جدل شعوبي قد احتدم بين كتابها بسبب رسالة أبي عامر ابن غرسية، كاتب أبي الجيش مجاهد العامري صاحب دانية (406-436هـ/ 1015-1044م) إلى الأديب أبي جعفر ابن الخراز معاتباً له على اختصاصه ببني صمادح العرب وعدم مدحه لمجاهد الرومي.

ورغم عدم رد ابن الخراز على الرسالة إلا أنها قد أثارت حمية عربية لدى كتاب الأندلس فتسابقوا إلى مناقضتها، فكتب أبو جعفر أحمد بن الدودين رده قبل سنة (477هـ/1084م)، وكذلك فعل أبو الطيب بن من الله القروي (ت 493هـ/1100م). أما ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال فقد دمج رسالة بعنوان: "خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسق، في تفضيله العجم على العرب، وقرعه النبع بالغرب" (هارون، 1954: ص ص 232-239).

ورغم أن مضمون الرسالة قديم متجدد، يتخذ من الحمية العرقية موضوعاً له، إلا أنه في تكفل ابن أبي الخصال شخصياً بالرد عليها، رغم مضي قرن على كتابتها، ما يفيد أن الغيرية الثقافية والانتماء المجالي لا يزالان موضع نقاش في الأندلس المرابطي. وضمن ترجمة ابن الأبار لعبد الملك بن أبي الخصال يقول: ووجدت سماعه من أبيه في نسخة من رسالته التي رد فيها على ابن غرسية في جمادى الآخرة سنة 528هـ/1134م (هارون، 1954: ص 239).

وقد غذاهما طول أمد الصراع بين العدوتين الأندلسية والمغربية منذ الفترة العامرية، مروراً بحقبة الطوائف وانتهاءً "بالاحتلال المرابطي"، الذي كان في حد ذاته حدثاً ثقافياً أثر عميقاً في نفوس النخبة الأندلسية المثقفة التي لم تستطع نسيان كيفية إسقاط أمراءها وقساوة التعامل معهم، حتى أصبح مثلاً فرط العصبية لبني عباد تهمة تكفي لإعفاء أحد الفقهاء من الفتيا وخطة الشورى (ابن الأبار، 1885: ص ص 26-27)، وربما كانت السبب في النهاية المأساوية للفتح ابن خاقان الذي وجد مذبحاً في أحد فنادق مراكش مع تواتر الروايات بإيعاز أمير المسلمين علي بن يوسف بذلك (ابن خاقان، 1989: ص 8) فالمطالع لأسلوبه في "القلاند" و "المطمح" يدرك بسهولة مدى كثافة النفس الأندلسي وطغيانه عليه، رغم أنه يضمّر أكثر مما يصرح، بعكس موقف أحد الشعراء عندما اتخذ من تقذيع الملتمين غرضاً شعرياً ناشئاً سينمو ويتطور لاحقاً حتى لبإمكاننا إنشاء ديوان هجو للمرابطين.

وسأكتفي بمثالين أحدهما يعلن والآخر يضمّر، أما الأول فهو للشاعر الأندلسي اليكي، ومن أمثلة هجائه للمرابطين قوله: (كامل) ([www.andalusite.ma](http://www.andalusite.ma))

إن المرابط لا يكون مرابطاً ..... حتى تراه إذا تراه جباناً  
تجلو الرعية من مخافة جوره ..... لجلاله إذ يلتقي الأقراناً  
إن تظلمونا ننتصف لنفوسنا ..... يجني الرجال فنأخذ النسواناً

ولعل أقذع ما وصلت إليه مخيلة هذا الشاعر هي قوله: (بسيط)

رأيت آدم في نومي فقلت له ..... أبا البرية إن الناس قد حكموا:

أن الزراجين رهط منك قال إذن .... حواء طالقة إن كان ما زعموا  
والزراجون كما وردت في النص: اسم أطلق على المرابطين تشبيها لهم بطائر يقال له الزرجان: وهو طائر  
أسود البطن أبيض الريش، لأن المرابطين في نظر أعدائهم بيض الثياب سود القلوب (www.andalusite.ma).  
أما المثال الثاني فهو للأديب والكاتب والفقير والجغرافي والمؤرخ الأندلسي أبي عبيد البكري عندما عبر  
عن امتعاضه من المرابطين بطريقة ذكية مزجت بين الحسرة والألم وذم الدهر والعبرة حين قال: (طويل) (ابن  
الأبار، 1985: ج2، ص187).

أجد هوى لم يأل شوقاً تجددا ..... ووجداً إذا ما أتهم الحب أنجدا  
وما زال هذا الدهر يلحن في الورى ..... فيرفع مجروراً ويخفض مبتدا  
ومن لم يحط بالناس علماً فإنني ..... بلوتهم شتى مسوداً وسيدا

وربما كان لكل ذلك أسبابه ودواعيه المباشرة والكامنة مثل طريقة إدارة المرابطين للأندلس، ومدى صمودهم  
في وجه محاولات غارات أمراء وكونتات الممالك النصرانية. إضافة إلى التغير الثقافي القادم مع موجات الهجرات  
من الجنوب نحو الشمال في شكل جنود ومقاتلة ومرتزة. لكن للرسالة موضوع الدراسة سببها المباشر على الأقل  
في اختيار الوقت والمناسبة.

## 2- مناسبة الرسالة:

كتبت هذه الرسالة أثناء محاولة جند بلنسية بقيادة الأمير أبي الطاهر تميم صد حملة ابن رديمير (ملك أرغونة)  
على المدينة، وبعد إحدى الهزائم التي تلقاها المرابطون.

ومن المعلوم أن هذه الحملة التي ابتدأت سنة 519هـ / 1125م (ابن عذاري، 1983: ج1، ص310)، كانت  
عبارة عن كر وفر ومد وجزر، وقد بدأت باستدعاء بعض ساكنة غرناطة أو معاهدتها لابن رديمير، ومملائته  
وتسهيل دخوله المدينة. وقد أسفر ذلك -حسب رواية ابن عذاري- عن دخوله أحواز بلنسية وحصاره لوادي آش،  
وتأهب الأمير أبو الطاهر تميم لملاقاته هناك، فتحرك ابن رديمير من وادي آش إلى بربيطة وأبو الطاهر تميم في  
أثره حتى تراءت الأخبية (ابن عذاري، 1983: ص ص69-70).

وبعد سبعة عشر يوماً من المناوشات الخفيفة بين الجيشين دون الدخول في مواجهة مباشرة جرى حوار بين  
ابن رديمير وأحد قادة المعاهدة الذين استدعوه، يعرف بابن القلاس، أسفر عن تحرك ابن رديمير من المكان باتجاه  
قبرة (غربي غرناطة)، وتحركت جيوش المرابطين نحوه، وأقام ابن رديمير أياماً بجبل قبرة ثم تحرك إلى حصن

أرنيسول (فصبحتة الجيوش يوم الأربعاء الثالث عشر من صفر، فكانت عامة النهار مكافحة، وفي أثنائها مناوشة والظهور عليه ... ) (ابن عذاري، 1983: ص71).

نقطة التحول في المعركة حسب ابن عذاري هي عندما أراد الأمير تميم أن "يرفع خبائه من وهدة كان فيها إلى ربوة عالية". ورغم الفراغات الكثيرة التي في النص إلا أنه يفهم منها حصول اختلال في جيش المرابطين وفراره، ربما نتيجة هجوم ليلي من جيش ردمير الذي أراد فتح الطريق باتجاه الساحل، ونجح في ذلك حيث ضرب أخته على ثلاثة فراسخ من غرناطة، وأقام بها ثلاثة أيام، وفي الرابع يبدو أنه تجددت الاشتباكات مع جيش مكناسة المرابطي بقيادة أبي حفص بن توزجين، كانت على ما يبدو عنيفة، حيث فقد فيها المرابطون عدة قادة، وتقدم ابن ردمير نحو أحد المروج، وخيل المرابطين تتبعه، حتى اضطرت للعودة إلى وادي آش حيث وجد في استقباله عسكر فاس بقيادة ينالة اللمتوني الذي خرج له من جهة الوادي، فقتل له قائداً كبيراً ومقتلة كثيرة جعلت ردمير يعود باتجاه حصن قرباقة من أنظار مرسية وشاطبة وعساكر المرابطين في أثره حتى لحق ببلاده (ابن عذاري، 1983: ص ص71-72).

هذه هي رواية ابن عذاري عن الحادثة التي اقتضت كتابة الخطاب القوي من ابن أبي الخصال، ورغم أن المعارك كانت بين كر وفر وانتصار وانهزام فإن الرسالة كانت قوية اللهجة، وربما كتبت أثناء تضاعف المواجهة، وبعد تلقي المرابطين لإحدى الهزائم القبيحة، فهل لنا أن نفترض أن قوة الرسالة قد رفعت الروح المعنوية والقتالية للجيوش المرابطية حتى طردوا ابن ردمير إلى بلاده؟

لقد تجاوز أسلوب الرسالة مستوى رفع المعنويات إلى السب والتجريح والتذيع، ولقيت استحساناً كبيراً من الأندلسيين حتى كادوا يحفظونها عن ظهر قلب، وهو ما قد يفسر المستوى الذي وصل إليه كره ابن أبي الخصال للمرابطين. لكن أي أبني أبي الخصال هو صاحب الرسالة؟

### 3 - كاتب الرسالة:

المتفق عليه في سيرة الأخوين ابني أبي الخصال أنهما كتبا لبعض أمراء المرابطين، لكن الاختلاف على مدى التزامن والتواتر، وهل أنهما كتبا رسالتين إلى جند بلنسية أم واحدة فقط، وأيهما واصل الكتابة بعدها وأيهما اعتزل؟

حسب رواية المراكشي في المعجب فإن كلا الأخوين قد كتب رسالة عن أمير المسلمين إلى جند بلنسية، وأضاف أن أسلوب أبي مروان كان أنكى وأقذع من أسلوب أخيه أبي عبد الله، وأنه أفحش وأغلط للمرابطين أكثر من الحاجة، ما جعل أميرهم يحسم الشك باليقين في كره أبي مروان لهم ويعفيه من الكتابة. ويورد المراكشي أول

الرسالة نفسها المنسوبة إلى أبي عبد الله على أنها لأخيه أبي مروان، ويعتذر عن إيراد الأخرى لطولها (المراكشي، 1963: ص ص 240-241).

وهنا نسجل ملاحظتين: الأولى: احتمال أن تكون هناك رسالتان من كلا الأخوين بنفس الغرض إلى جند بلنسية، وصلتنا إحداها لكننا لا نستطيع جزم نسبتها إلى أحدهما، والثانية: أن تكون رسالة واحدة فقط لأحدهما، وهنا نتساءل عن كاتب الرسالة من جديد - من يكون منهما؟

بالنظر إلى الإشارات المتعددة عن حياة ابني أبي الخصال نلاحظ أن أبا عبد الله منهما قد خالط الأمير اللمتوني محمد بن الحاج منذ إمارته على قرطبة، ثم في فاس وسرقسطة التي وليها عام 504هـ / 1110م (ابن عذاري، 1983: ص 55)، وقبلها بسنة كان قد عاد مع أمير المسلمين من الأندلس إلى مراكش (ابن خاقان، 1989: ص 522)، لكن يبدو أن تولية مخدومه ابن الحاج على سرقسطة قد أغرته باللاحق به، وبعد وفاة ابن الحاج لزم داره إلى أن توفي سنة 540هـ / 1145م (ابن الأبار، 1885: ص 147).

ولم يختلف عنه كثيراً أخوه أبو مروان الذي كتب بدوره لبعض رؤساء لمتونة قبل أن يكتب لعلي بن يوسف (ابن عبد الملك، 1965: ص 105)، واعتبره ابن الأبار أشهر كتاب بيت أبي الخصال (ابن الأبار، 1885: ص 146)، ووردت له رسائل عن أمير المسلمين بعد الرسالة إلى جند بلنسية (عيسى، 1989: رسالة عدد 26 ص 131، ورسالة عدد 22 ص 119)، وقد توفي في مراكش عام 539هـ / 1144-1145م (ابن عبد الملك، 1965: ص 105)، ما يعني أنه ربما واصل الكتابة لعلي بن يوسف وخلفه تاشفين بن علي حتى وفاته (كنون، 1960: ص ص 567-577).

الحدث الأبرز في حياة أبي عبد الله ابن أبي الخصال هو مشاركته في محاولة ابن الحاج اللمتوني الثورة على أمير المسلمين علي بن يوسف، وبعد فشل المسعى بقي أبو عبد الله خائفاً يترقب عاقبة سوء فعله رغم العفو عنه وعن أميره. فما كان مصيره بعد ذلك؟

حسب صديقه ابن خاقان فإنه بعد تورط أبي عبد الله في تلك "الفتنة" عرفت علاقته بالبلاط المرابطي نوعاً من الفتور، فلا هو بالكاتب الرسمي المعتمد لدى السلطان، ولا بالمستبعد نهائياً من الكتابة، وبقيت الحاجة إليه كجندي احتياطي يستدعى عند الضرورة، وهو ما تلخصه عبارة الفتح (وما زالت الدول تستدنيه نائياً، وتثنيه دانياً، ولا تجعله مجنباً عليه ولا جانبياً) (ابن خاقان، 1989: ص 520).

أما ابن الأبار فيرثي للحالة التي آل إليها أبو عبد الله الذي كان رجلاً طموحاً، لكنه جنى على نفسه بالمشاركة في محاولة الثورة على الأمير علي بن يوسف، فتعرض للإهمال الرسمي مقابل شغوف أخيه أبي مروان عليه في

الكتابة وكأنهما فرسا رهان، وبعد وفاة ابن الحاج، سنة 508هـ / 1114-1115م، فقد أبو عبد الله السند المرابطي الوحيد الباقي له، فلزم داره (خوفاً من تلك الأحقاد القديمة)، ويبدو أن أحداً لم يتذكره بعد ذاك طيلة حكم علي ابن يوسف ابن تاشفين (500هـ - 537هـ / 1106م - 1142م) (ابن الأبار، 1885: ص ص 146-147). فما الذي خشيه أبو أبي الخصال؟

رغم عفو أمير المسلمين عن القائمين عليه بالثورة فإن الأمر لم يقف عند هذا الحد، إذ يفيدنا صاحب القلائد في ترجمة قاضي قرطبة أبي عبد الله بن حمدين بتعرض هذا الأخير إلى الابتلاء لإلزامه بالموافقة على خلع علي بن يوسف وبيعة ابن الحاج، فلم يستجب لذلك، وبعد خيبة مسعى الثوار أغرى بهم ابن حمدين (فأخمل منهم أعلاماً) (ابن خاقان، 1989: ص 611).

من هنا يتضح أن خمول أبي عبد الله بن أبي الخصال ربما كان بأمر من قاضي قرطبة لسالف مشاركته في الثورة أولاً، وفي ابتلاء القاضي ابن حمدين نفسه ثانياً. ورغم تأكيد ابن الأبار على طول مدة الخمول هذه فإن محقق رسائل هذا الكاتب يرى أنها كانت فترة قصيرة ومحدودة ظهر فيها أبو مروان ككاتب للبلاط المرابطي نيابة عن أخيه الذي رد إليه اعتباره لاحقاً (الداية، 1988: ص 13).

وحتى في ديوان الرسائل هذا نفسه نجد ما يفيد خمول ابن أبي الخصال بعد وفاة مخدومه ابن حاج سنة 508هـ / 1114-1115م، إذ تتوالى كتبه على الحضرة العلية مذكراً تارة بوصية عمه له في ملازمة ديوان أمير المسلمين، وطالباً -تارة أخرى- الإلحاق بالديوان الأميري (عيسى، 1989: رسالة عدد 28 ص 105، ورسالة عدد 40 ص 121)، وكانت ترد كتبه إلى مراکش عن فلان وعن فلان ما قد يفيد أنه ربما يكون قد اتخذ الكتابة مهنة يقتات منها.

من خلال كل هذه التقلبات التي عاشها أبو عبد الله ابن أبي الخصال يمكننا فهم لماذا كتب بهذه الشحنة من الكراهية اتجاه المرابطين، فضلاً عن اختياره التوقيت المناسب لذلك، وهو الهزيمة النكراء أمام جند رزمير، وكأنه وجد الفرصة سانحة لمحو الصورة المترسخة في أذهان عامة الأندلس حول المرابطين. فكيف تهورت به السبل بين الولاءات والانتماءات؟

#### 4 - نص الرسالة:

(من أمير المسلمين وناصر الدين، أما بعد:

يا فرقة خبثت سرايرها، وانتكثت مرايرها، وطائفة انتفخ سحرها، وغاص على حين مرة بحرها، فقد آن للنعم أن تفارقكم، وللأقدام أن تطأ مفارقكم، حين ركبتموها جلواء عارية، وأصبحتم في ادراع عارها أمثالاً سواسية، واختلط

المرعي منكم بالهمل، فما يتبين إلا نقص من الأكمل، فطأطأتم لها رؤوس عشايركم، وقضيتم بالفسولة على سايركم، لا جرم أن قد صرتم سمر النُدي، والأحاديث المعلنة بالغداة والعشي، بما خامركم من الجبن والخور، واستهواكم من لقاء عدوكم بالجانب الأزور، لا تواجهونهم طرفة عين، ولا تعاطونهم حُمة حين، بل تعطوهم الظهر هنياً مرياً، وتتخذونهم وراءكم ظهيراً، والرماح نحوكم لم تشرع، والخيل لم تسرع، والنفوس في حياض المنية لم تُكرع، فإنكم ثلّة ذيابهم، وفريسة أنيابهم، قد نعموا في بوسكم، وناهضوكم بلبوسكم، وحاربوكم عاما على إثر عام حتى ألزقوكم، وتركوكم أسلح من حبارى وأشرد من نعام.

فالآن حين ملأتم أيديهم متاعاً، وواديهم سلاحاً وكراعاً، قد غزوكم في عقركم، وأذاقوكم وبال أمركم، فلذتم بالجدران، وبؤتم بالندامة والخسران، يا بغايا بني الأصفر، وسجايا ذوات الدلّ والخفر، أكرهتم زحافهم، وكنتم -علم الله- أضعافهم، أنى لكم بالمعذرة، وأين؟، وقد فرض الله الواحد منكم بالإثنين، فقال: "إن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين" (القرآن الكريم، سورة الأنفال 66/8)، هذا، وكلمتكم العليا، وحلويتكم الحياة الدني -كذا- ما شئتم من صارم وطرف، ونحض وركايب وسوام، ونضايذ وخيام.

فيا أسفا للحق يدمغه الباطل، والحالي يبهره العاقل، لا بالحنيفية تحرزتم، ولا إلى الحفيظة والإنابة تحيزتم. ليت شعري، بماذا تقلدتموها هندية واعتقلتموها سمهرية خطية، وركبتموها جُرّداً سوابق، وملكتموها مغارب ومشارق، ثاوين في غير عدادكم، منتزين على أصدادكم، يؤدون الإتاوة إليكم حين أشرقتموهم بالهوان، وأنتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان، وصيروكم عبيد العصى، ولستم بالأكثرين منهم حصى، بل شرذمة قليل نفعها، كثير نجعها. فيا عجباً لذهولكم، شبانكم وكهولكم، تأكلون تمرها ولا تصلون جمرها، وتذهبون بجلوائها ولا تصبرون على لأوائها. أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة:

إلى م يريكم الناقد ..... ويُرديكم الفارس الواحد  
ألا هل أتاها على نأيها ..... بما فضحت قومها غامد  
تمنيتم مائتي فارس ..... فردكم فارس واحد  
فليت لكم بارتباط الخيول ..... ضئانا لها حالب قاعد

ومن لرعاة الإبل بالجد المقبل؟ لقدما ما أذهبتم التالد والطارف، وعجباً عجيباً من جذامى المطارف، وأنتم قد قدحتم في ملكنا، وأذنتم بانتثار سلكننا، فلولا من لدينا من ذويكم وضراعتهم إلينا فيكم، لألحقناكم عجباً بصحرايكم، وطهرنا الجزيرة من رُحضايكم، بعد أن نوسعكم عقاباً، ونحد أن لا تلوا على وجه نقاباً، اللؤم تحت عمايمكم،

والوهن والفشل طي عزائمكم، لكن ما جبلنا عليه من الأناة، وتوخيناها قدما من إيقاظ ذوي الملكات، يكفنا عن استيصالكم، ويحملنا على شحذ نصالكم.

فاستنسروا يا بغاث الهيجا، واستئيئسوا بعد الرجا، واحذروا حلماً أغضبتموه، ووادياً من الصبر أنضبتموه، وتوقوا صدراً أخرجتموه، وليثاً من أجمته أخرجتموه. وإيم الله نقسم إنذاراً بكم، وإعذاراً لكم، لنوردن الفار منكم من الزحف ما عافه من موارد الحتق، ولنتجاوزن السوط إلى السيف، ولنبدلن المعدلة فيكم بالحيف، فليعلم المقدم المحجم منكم عن الإقدام، أنه سلم من الحمام إلى الحمام، وتخطى مصرع الأسد الباسل إلى جذع مائل، وشهادة الأبرار إلى مشهد الذل والصغار، كما أن من أصيب منكم في حرب، أو أبلى بطعن وضرب، خلفناه في الأهل والولد، وبغناه الأثرة والكرامة يدا بيد، فاختراروا لأنفسكم وأعقابكم، وانضوا ثوب الخزي عن رقابكم، والسلام على من حمى الإسلام) (مؤنس، 1955: ص ص 97-140).

#### 6- شرح غريب الألفاظ الواردة في الرسالة:

- مرايرها أي : الحبال المقتولة .. (ابن منظور، 1414هـ: ج5، ص 169، مادة: مرر).
  - يشير بلفظة الفسل إلى: الرذل والنذل، (ابن منظور، 1414: ج11، ص 519، مادة: فسل).
  - جلواء: واسعة .. (ابن منظور، 1414: ج14، ص 151، مادة: جلا).
  - في ذكر الحبارى؛ يقال إن الحبارى تقاتل الصقر بلا سلاح.
  - يشير بذكره لذوات الدل والخفر إلى النساء.
  - يشير بقوله: وأنتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان؛ إلى قصيدة المتني:
- مغاني الشعب في طيب المغاني ..... بمنزلة الربيع من الزمان  
ولكن الفتى العربي فيها ..... غريب الوجه واليد واللسان
- يشير في لفظة لأوائها إلى الشدة وضيق المعيشة (ابن منظور، 1414هـ: ج15، ص238، مادة: لأي).
  - الأبيات الثلاثة الأخيرة وردت في البيان والتبيين ضمن الكلام على المعلمين، واستطرد به الحديث إلى استحماق رعاة الغنم وأتى بالشاهد، وهو لامرأة من بني غانم تعيب على غزاة من قومها انهزامهم أمام ربيعة بن مكرم الكناني وحده. (الجاحظ، 1948: ج1، ص249).
  - في قوله: وعجباً عجباً من جذامى المطارف؛ تحريف لببيتين وردا في "بلاغات النساء" في فصل (بلاغات النساء في منازعات الأزواج في المدح والذم) ص 95 .. قال أبو زيد عمر بن شبة كانت حميدة بنت النعمان

بن بشير بن سعد تحت روح بن زنياع، فنظر إليها يوما تنتظر إلى قومه جذام، وقد اجتمعوا عنده، فلامها، فقالت: وهل أرى إلا جذاما، فوالله ما أحب الحلال منهم فكيف بالحرام، وقالت تهجوه: (ابن طيفور، 1908: ص 95).  
 بكى الخز من روح وأنكر جلده .... وعجت عجيجا من جذام المطارف  
 وقال العبا قد كنت يوما لباسهم ..... وأكسية كردية وقطائف  
 - في قوله فاستتسروا يا بغاث الهيجا، يعني به بغاث الطير؛ ألأئمةا وشرارها (ابن منظور، 1414هـ: ج 2، ص 118، مادة: بغث).

## 7- بين الولاء والانتماء:

يبدو جلياً من خلال هذه الرسالة تأرجح ابن أبي الخصال بين خيارى الولاء لمهنة الكتابة وأخلاقيات الكاتب، وبين الانتماء لحيز جغرافى ومجال ثقافى بكل ما يحمله من معانى الهوية والتمايز .  
 فعلى المستوى الأول ما كان لكاتب بمستوى ابن أبى الخصال أن ينسى أو يتناسى أدبيات الكتابة عن السلطان، وهو المتمرس والقذوة لغيره، فعندما كتب ألفونسو السادس رسالة إلى ابن تاشفين يتوعده قبل الزلاقة، طلب الأمير المرابطى أن يكتب بأن الجواب ما يراه لا ما يسمعه، فما كان من الكاتب إلا أن اقتصر على بيت أبى الطيب المتنبى المشهور: (الكلاعى، 1966: ص 164).

فلا كتب إلا المشرفية والقنا ..... ولا رسل إلا الخميس العرمرم

وفى قوانين الدواوين أن من أدبيات الكتابة الاستفتاح بذكر الله وذكر النبى عليه الصلاة والسلام، وذكر الخليفة ثم ذكر الكاتب، ولم يتقيد ابن أبى الخصال بأى من ذلك فى هذه الرسالة، ويضيف ابن مماتى أن على الكاتب ألا يقع فى غيبة ولا نميمة، وألا يظهر لأحد صداقة ولا عداوة، ولا يعرض نفسه لسخط مخدومه فى سر ولا علانية (ابن مماتى، 1991: ص ص 63-67)، وهل ترك ابن أبى الخصال شيئاً من ذلك لم يأتته؟

ويذكر القلقشندي بعض ما تميز به كتاب المغرب عن نظرائهم فى المشرق، ومن ذلك التزامهم بالدعاء فى الديباجة، ثم الترضية على الخليفة القائم، وذكر اسم المكتوب إليه (القلقشندي، 1963: ج 7، ص 30)، وقد تجاوز ابن أبى الخصال كل ذلك دفعة واحدة فى إخلال منهجى واضح بقوانين وأدبيات الكتابة.

أكثر من ذلك نجد لدى ابن السيد البطليوسى - نقلاً عن ابن مقلة - ترتيباً لدرجات المكتوب إليهم، وما يلتزم به الكاتب اتجاه كل درجة أو طبقة، ويقسم هذا التصنيف المكاتبين إلى ثلاث أصناف: من هم فوق الكاتب منزلة، ومن هم مثله، ومنهم دونه، وكل درجة منها تنقسم بدورها إلى ثلاث درجات متفاوتة، أعلاها يبدأ بالخليفة وأدناها

ينتهي بالخدم (البطليوسي، 1996: ص ص 140-141)، ولكل منها ما يناسبها من أسلوب وأدب في الكتابة إليها.

وبالعودة إلى رسالة ابن أبي الخصال إلى جند بلنسية يتضح أيضاً عدم تقيد الكاتب بهذه المراتب والقفز بالمخاطبين مباشرة من درجة الأمراء والقواد والحكام والأعيان إلى درجة الأولياء والخدم والحشم والعبيد، وهذا ما يفسر حدة التقذيع والتوبيخ والتهديد والوعيد. فما هي مرتكزات هذا الموقف المفاجئ من الكاتب ضد المرابطين؟ وهل يمكن لانتماءاته الثقافية المتعددة ونظرته للآخر أن تفسر ذلك؟

لشدة قوة الرسالة لم يبدأ الكاتب بالسلام ولا بالحمد أو الثناء على أمير المسلمين، وليست هناك ديباجة ولا مقدمة للموضوع، بل دخول مباشر فيما أراد أن يقوله، وها نسجل الملاحظات التالية:

أولاً: الكاتب لم يذكر المرابطين بالاسم ولا بالأوصاف المشهورة عنهم سواء مدحاً أو قدحاً، بل إنه ابتدع لهم صفات جديدة مثل: فرقة، طائفة، بغايا، شردمة، بني اللئيمة، بغاث الهيجاء.

ثانياً: أن الصفات الخُلقية للمرابطين عنده قد تمثلت في: خبث السرائر، الفسولة (وهي الرذالة والدنائة)، الجبن والخور، حب الدنيا وكراهية الموت، قلة النفع وكثرة النجع (حيوانات شرهة)، اللؤم، البداوة (رعي الإبل)، الوهن والفشل، الخزي والعار.

ثالثاً: صفات أخرى يمكن أن نطلق عليها مجازاً "صفات الغيرية": وهي كل ما يعزز التمايز الاجتماعي والديني والثقافي عموماً بين المرابطين والأندلسيين، ومن مفرداتها:

- "ثاوين في غير عدادكم": الغيرية الاجتماعية.
- "منتزين على أضدادكم": الحكم القسري لمن هم ضد لكم في القيم والحضارة.
- غرباء الوجه (السحنة) واليد (الكرم) واللسان (اللغة): البربرية والرطانة مقابل العربية والفصاحة.
- "قدحتم في ملكنا ونثرتم سلكنا": الأولى ربما إشارة إلى استعانة المرابطين بالفقهاء لتبرير إسقاط ملوك الطوائف، والثانية تعزيز التمايز الاجتماعي عبر إضافة عنصري السودان وبرابر الصحراء إلى الأجناس الأندلسية.
- "لألحقناكم بصحرائكم، ونظهر الجزيرة من رحضائكم": فهي موطنكم الأصلي بحكم طبيعتكم البدوية التي دنست نضارة وحضارة الأندلس.
- "ونحد أن لا تلوا على وجه نقابا": أطلقت على المرابطين تسميات وأوصاف انطلاقاً من زيهم الذي تميزوا به، فهم الملتزمون أو أصحاب اللثام، وقد كان مصدر سخرية من الناقمين وإلهام لشعراء المدح في نفس الوقت (ولد يحي، 2008).

- نحن الأندلسيين جبلنا على الأناة وشحذ الهمم، ذلك ما يمنعنا من استئصالكم، أما أنتم فالتهور والبلادة والطيش واستسهال القتل والتدمير.

رابعاً: في الفقرة الأخيرة نفس أندلسي متعالٍ، يتعامل مع المرابطين وكأنهم مجرد مرتزقة أو جنود أو عبيد لدى الأندلسيين، مهمتهم القتال والذود عن الجزيرة وحماية الإسلام فيها، من امتثل منهم ذلك فله جزاء الحسنى، ومن قصر عنه فإنه سلم من الموت إلى الموت، ومن جرح "خلفناه في الأهل والولد".

**الخاتمة:**

يمكن اعتبار رسالة أبي عبد الله بن أبي الخصال هذه "توبة" رسائل كتاب الأندلس المرابطي، قد تعبر عن حالة مزاجية عامة، لكنها صدرت عن كاتب عانى في زمن دولة الفقهاء من التهميش والإقصاء، وعاین موطنه يستباح من بداءة جفافة عالة على العلم والحضارة، كانت مهمتهم الأولى القتال وصد غارات العدو النصراني، ثم شرهوا واشترئبت أعناقهم إلى ملك الأندلس كلها، ونسوا واجبهم المقدس، وركنوا إلى الراحة والدعة، بوسائل ما عرفوها ولا ألفوها، حتى تراخت الهمم وعجزوا عن أداء المهمة، لذلك كان من الطبيعي أن يخسروا بعض المعارك أمام أكثر من طرف في المغرب والأندلس.

لكن الرسالة ليست إلا جزءاً من اتجاه عام لدى نخبة الأندلس يرفض الاعتراف بأي دور ثانوي لعنصر آخر خارج المجال الثقافي لشبه الجزيرة الإيبيرية، نجد صداه لدى العديد من الكتّاب والأدباء والشعراء، لكن هذه الدرجة من الحدة في رسالة ابن أبي الخصال إلى جند بلنسية لم يسبق أن كتب بها في عهد المرابطين، فهل عبّر الكاتب عن الضمير الجمعي لساكنة الأندلس بعد تلقي رسالته بالاستحسان؟ أم أن تجربته المريرة تحفظ للرسالة خصوصيتها الظرفية والنفسية والسياقية؟

## قائمة المراجع:

- ابن الأبار، محمد بن عبد الله. (1885). *المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديقي* (تحقيق فرانسيسكو كوديرا). بغداد: مكتبة المثنى ومصر: مؤسسة الخانجي.
- ابن الأبار، محمد بن عبد الله. (1985). *الحلة السرياء* (ط. 2، تحقيق حسين مؤنس، ج 1-2). القاهرة: دار المعارف.
- ابن بسام الشنتريني، علي بن الحسن. (1979). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة* (ط. 1، تحقيق إحسان عباس، 4 مجلدات). بيروت: دار الثقافة.
- ابن خاقان، الفتح بن محمد. (1989). *قلائد العقيان في محاسن الأعيان* (تحقيق حسين يوسف خريوش). الأردن: مكتبة المنار.
- ابن السيد البطليلوسي، عبد الله بن محمد. (1996). *الاقتضاب في شرح أدب الكتاب* (ط. 1، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد). القاهرة: دار الكتب المصرية.
- ابن طيفور، أحمد بن أبي طاهر. (1908). *كتاب بلاغات النساء* (تحقيق أحمد الألفي). القاهرة: مطبعة والده عباس الأول.
- ابن عبد الملك المراكشي، محمد بن محمد. (1965). *الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: السفر الخامس* (تحقيق إحسان عباس). بيروت: دار الثقافة.
- ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد. (1983). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* (ط. 3، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال). بيروت: دار الثقافة.
- ابن مماتي، الأسعد. (1991). *كتاب قوانين الدواوين* (ط. 1، تحقيق عمر سوريال عطية). القاهرة: مكتبة مدبولي.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. (1414هـ). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. (1948). *البيان والتبيين* (ط. 1، تحقيق عبد السلام هارون). القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- الداية، محمد رضوان. (تحقيق). (1988). *رسائل ابن أبي الخصال*. دمشق: دار الفكر.
- عيسى، فوزي سعد. (1989). *رسائل ومقامات أندلسية*. الإسكندرية: منشأة المعارف.
- عنان، محمد عبد الله. (1990). *دولة الإسلام في الأندلس: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس* (ط. 2، ج 1). القاهرة: مكتبة الخانجي.

- القلقشندي، أحمد بن علي. (1963). *صبح الأعشى في صناعة الإنشا* (14 ج). القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
- الكلاعي، محمد بن عبد الغفور. (1966). *إحكام صنعة الكلام* (تحقيق رضوان الداية). بيروت: دار الثقافة.
- كنون، عبد الله. (1960). *نصوص تاريخية: رسالة الكاتب ابن أبي الخصال التي نال فيها من كرامة المرابطين. مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، 35(1)، 115-130.*
- المراكشي، عبد الواحد بن علي. (1963). *المعجب في تلخيص أخبار المغرب* (تحقيق محمد سعيد العريان). القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- مؤنس، حسين. (1955). *نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين: أي من 1126/520 إلى 1145/540. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، 3(3)، 15-40.*
- هارون، عبد السلام. (تحقيق). (1954). *نوابر المخطوطات (المجموعة الثالثة)*. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ولد يحيى، عبد السلام. (2008). *صورة المرابطين في الكتابات الأندلسية المعاصرة لهم: 423هـ/1031م إلى 484هـ/1181م* (رسالة ماجستير غير منشورة). كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس.
- شيخة، جمعة. (د.ت). *المجتمع الأندلسي بين التعصب والتسامح من خلال المادة الشعرية*. مسترجع من موقع الرابطة المحمدية للعلماء:

[http://www.andalusite.ma/index.php?option=com\\_content&Itemid=2&id=276&view=article](http://www.andalusite.ma/index.php?option=com_content&Itemid=2&id=276&view=article)